فلسفة القصَّة

ولماذا لا أكتبُ فيها . . . ؟[١]

لم أكتب في القصَّة إلا قليلاً ، إذا أنت أردت الطَّريقة الكتابيَّة المصطلح على تسميتها بهذا الاسم ، ولكنِّي مع ذلك لا أراني وضعت كلَّ كتبي ، ومقالاتي إلا في قصَّةٍ بعينِها ، هي قصَّة هذا العقل الَّذي في رأسي ، وهذا القلب الَّذي بين جنبيَّ .

أنا لا أعبأ بالمظاهر ، والأغراض الَّتي يأتي بها يومٌ ، وينسخها يومٌ آخر ، والقِبلةُ الَّتي أتَّجه إليها في الأدب إنَّما هي النَّفس الشَّرقيَّة في دينها ، وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبعثها حيَّةً ، ويزيد في حياتها ، وسموِّ غايتها ، ويمكِّن لفضائلها ، وخصائصها في الحياة؛ ولذا لا أمسُّ من الآداب كلِّها إلا نواحيها العليا ، ثمَّ إنَّه يخيَّل إليَّ دائماً أنِّي رسولٌ لغويٌّ بعثت للدِّفاع عن القرآن ، ولغته ، وبيانه ، فأنا أبداً في موقف الجيش (تحت السِّلاح) : له ما يعانيه ، وما يحاوله ، ويفي به وما يتحفَّظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها ؛ وكيف اعترضْتَ الجيش رأيتَه فنَّ نفسه ، لا فنَّك أنت ، ولا فنَّ سواك ؛ إذ هو لطريقته ، وغايته ، وما يتأذَّى به للحياة ، والتَّاريخ .

ألا ترى : أنَّ تلك الرِّوايات توضع قصصاً ، ثمَّ تُقرأ فتبقى قصصاً ؟ وإنْ هي صنعت شيئاً في قرَّائها ؛ لم تزد على ما تفعل المخدِّرات : تكون مسكِّناتٍ عصبيَّةً إلى حينٍ ، ثمَّ تنقلب هي بنفسها بعد قليلٍ إلى مهيِّجاتٍ عصبيَّةٍ ؟

وأنا لا أنكر أنَّ في القصَّة أدباً عالياً ، ولكنَّ هذا الأدب العالي في رأيي لا يكون إلا بأخذ الحوادث ، وتربيتها في الرِّواية كما يربَّى الأطفال على أسلوبٍ سواءٍ في العلم ، والفضيلة ، فالقصَّة من هذه النَّاحية مدرسةٌ لها قانونٌ مسنونٌ ، وطريقةٌ

---

(١) وُجِّه إلينا سُؤالٌ : لماذا لا تكتب في القصَّة ؟ وكان هذا قبل أن نكتبَ مقالاتنا في مجلَّة الرسالة ، فرددنا بهذا الرَّدّ . (ع) .

قلت : وانظر « عمله في الرِّسالة » من كتابنا : « حياة الرَّافعي » . (س) .

ممحَّصةٌ ، وغايةٌ معيَّنةٌ ، ولا ينبغي أن يتناولها غير الأفذاذ من فلاسفة الفكر ؛ الَّذين تنصبهم مواهبهم لإلقاء الكلمة الحاسمة في المشكلة الَّتي تثير الحياة ، أو تثيرها الحياة ، والأعلام من فلاسفة البيان ؛ الَّذين رُزقوا من أدبهم قوَّة التَّرجمة عمّا بين النَّفس الإنسانيَّة والحياة ، وما بين الحياة وموادِّها النَّفسيَّة في هؤلاء ، وهؤلاء ، وتتخيَّلُ الحياةَ ، فتبدع أجمل شعرها ، وتتأمَّلُ فتخرج أسمى حكمتها ، وتشرِّع ، فتضع أصحَّ قوانينها .

وأمَّا مَنْ عداهمْ ممَّن يحترفون كتابه القصص ؛ فهم في الأدب رعاعٌ ، وهمجٌ كان من أثر قصصهم ما يتخبَّط فيه العالم اليوم هو فوضى الغرائز ، هذه الفوضى الممقوتة الَّتي لو حقَّقتها في النُّفوس ؛ لما رأيتها إلا عامِّيَّة روحانيَّةً منحطَّةً تتسكَّع فيها النَّفس مشرَّدةً في طرق رذائلها .

إذا قرأت الرِّواية الزَّائفة ؛ أحسَسْتَ في نفسك أشياءَ بدأت تسفُل ، وإذا قرأت الرِّواية الصَّحيحة ؛ أدركت في نفسك أشياء بدأت تعلو ، تنتهي الأولى فيك بأثرها السَّيِّئ ، وتبدأ الثَّانية منك بأثرها الطَّيِّب ؛ وهذا عندي هو فرق ما بين فنِّ القصَّة ، وفنِّ التَّلفيق القصصيِّ ! !

* * *